تكافؤ الفرصة

بين الجد والهزل

سيدى الدكتور

أمّا الجد فقد فرغنا له ثلاث سنين ، وفرغنا منه فى سنة ١٩٤٤ — وأما الهزل فقد بدأ فى سنة ١٩٤٥ . ولكل من الجد والهزل مقياس . والمقياس لغة هو القانون . فاذا أردت أن تعرف حد الهزل فى « تكافؤ الفرصة » وجب أن ترجع إلى رجال القانون الذين يتولون شؤون التربية والتعليم ، فقد قالوا « إنّ الهزل ضد الجد . والمراد به أن ينطق الإنسان بالعبارة راضياً مختاراً . لكنه لا يريد معناها الحقيقى ولا المجازى ، بل يصدر عنه الكلام لعباً محضاً لا يقصد به أى معنى » . ولا أكتمك يا سيدى الدكتور أننى تشاءمت بعبارة « تكافؤ الفرصة » عندما اهتدينا إليها فى سنة ١٩٤٣ . فمن الألفاظ ما يجر الشؤم على المعانى ، ومنها ما يجر الفأل والبركة . وكان خليقاً بنا أن نتطير من هذين اللفظين وبخاصة لفظ « التكافؤ » ؛ فقد جرى به قلم محكمة النقض والإبرام سنة ١٩٣٤ . جرى به هذا القلم فى معرض المهاترة والسب والقذف ، فقررت المحكمة العليا أنّ القذف والسب المتبادلين لا يقتضيان التعويض لما بين القاذفين من تكافؤ فى السيئات . ولذلك قلت إننى تشاءمت بهذا اللفظ . وها أنت ترى أنّ مبدأ تكافؤ الفرصة أصبح سيئة من السيئات كما قررت المحكمة العليا . وقد أدركت الآن أنّ تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً صحيحاً يدك نظام المجتمع المصرى ؛ لأنّ تعليم الفقراء يفقر الأغنياء ، وفقر الأغنياء داهية دهياء . ولا يخفى عليك يا سيدى الدكتور أنّ المتعلمين هم زينة المجتمع . ومن الخطأ البين أن نحاول تعليم الشعب كله فيصبح الشعب كله زينة . وإخالك لا تجهل أنّ « أمراض الزينة » عند الأطباء من الأمراض الملعونة . ومن عجب يا سيدى الدكتور أنك تخطب وتكتب ، ولكنك لا تعلم حقيقة ما تكتب ولا تدرك معنى ما تقول . أنت من أضعف خلق الله ، ولكن الله وضع فيك سرًّا . وقد رأينا من ضعاف الناس من

تجرى على ألسنتهم أسرار الغيب ، وهم لايعلمون أنهم يتكلمون بما وراء العيب وإنّ كلامهم — كما يقول الصوفية — مستخلص من الطبائع متصل بحقيقة الحقائق . وقد تعودت أن أرجع إلى مواضع « طلب المعانى » فى « مدارك » الصوفية لأدرك معنى أقوالك ، وما يجرى الغيب على لسانك . من ذلك أننى قرأت لك مقالا فى إحدى المجلات فى عام ١٩٤١ عن مستقبل الديموقراطية بعد الحرب . كان لك فيه آمال ومتمنيات ؛ من أمثال تكافؤ الفرصة ونشر التعليم ، ثم ختمت مقالك ببيت من الشعر !

منى أن تكن حقًا تكن أحسن المنى
وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغدا

فلما رجعت إلى كتب الصوفية وبخاصة أقوال نجم العرفان المسندة إلى قطب الواصلين ، وجدت أنهم عقدوا لهذا البيت باباً بل أبواباً بعنوان « الأمانى الكاذبة ومضارها » . ولم يقتصر كلامهم فى هذه الأبواب على الأمانى الكاذبة فى العلم والتعليم بل تناول كذلك الأمانى الكاذبة فى الغذاء والكساء . ثم قالوا فى أمثالك يا سيدى الدكتور إنكم « مغرمون بوصال صورة وهمية خيالية . مثلكم مثل الجائع والعارى يصور فى وهمه صورة الغذاء والكساء وهو لا يأكل ولا يلبس » . وقد ألحوا عليكم باللائمة واعتبروكم مجانين . وأنت تعلم يا سيدى الدكتور أنّ المجنون شر من الأمى . وقد وصفك بعض كتاب الدنيا بأنك أمى فاحمد إليهم الله ، الذى لا يحمد على مكروه سواه . أمّا سند الصوفية فى أنك مجنون ، فهو قولهم « العقل لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوشه ما بين غرور وأمانى باطلة وسراب لا حقيقة له » .

ولذلك ينبغى لك يا سيدى الدكتور أن تحذر شؤم هذا البيت من الشعر ، كما ينبغى لى ولك أن نحذر من شؤم تكافؤ الفرصة .

وأولى بى وبك بل أولى بمصر كلها أن نتمثل بقول الشاعر :

أمنية ظفرت نفسى بها زمناً
واليوم أحسبها أضغاث أحلام

لقد طبقنا « تكافؤ الفرصة » كما أمر عمر بن الخطاب حين قال « آس بين الناس » ولكنا حفظنا شيئاً وغابت عنا أشياء ... غاب عنا أنّ المحبة الصادقة للعلم تمنع قبول المشاركة فى المحبوب . فلا ينبغى للعلماء إن كانوا صادقين فى محبتهم للعلم أن يسهلوا للجهلاء سبيل مشاركتهم فيه . وبهذا وحده يمكنك يا سيدى الدكتور أن تعلل محاربة من تعلموا بالمجان للفقراء من طلاب العلم . وحقيقة الحال أنه لا يمكن تعليل ذلك إلاّ بصدق المحبة للعلم وعدم قبول المشاركة فى المحبوب . وغاب عنا أنّ الشر إذا كان مشتركاً يصبح خيراً . وأنّ الأمانى أوفر حظّاً فى اللذة من تحقيقها . ولم يكن ينبغى أن يغيب ذلك عنك . فأنت تزعم أنك أديب الشرق ، ومع ذلك لا تذكر قول الأصمعى « تمنيك الشىء أوفر حظّاً فى اللذة من قدرتك عليه » . وقد أدرك شانئوك هذا الذى غاب عنك ... فتكافؤ الفرصة وهو أمنية ، أوفر حظّاً فى اللذة من تكافؤ الفرصة بالفعل . وقد حسبت أنّ الدنيا كلها معك حين بشرت بهذا المبدأ ، وغاب عنك أنّك شيطان وأنّ الباطل كله يتحيز مع الشيطان . وكذلك حسبت أنّ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء كما يقول المسلمون . ولهذا عاونت الفقراء ، راجياً أن تسبق إليها معهم . وغاب عنك أيها المفتون أنهم إنما يدخلون الجنة قبل الأغنياء لأنهم يموتون قبلهم .

وقد وفق الله للخلاص منك على طريقة الصوفية تماماً ؛ فقد فطن الصوفية لشأن التربية من زمن طويل ، فجاء فى كتاب الإبريز أنّ الإصلاح لا يمكن أن يتم إلاّ على يد « شيخ التربية » . وأنّ المقصود من التربية هو « تصفية ذاتك ، وتطهيرها من رعوناتك » . وأوجبوا على المريدين والذين يلون « شيخ التربية » من المربين ألا يرضوا سوى شيخهم ، وأن يدوروا معه حيثما دار ، وإن بعد « شيخ التربية » فى الظاهر عن الحق بعداً بيناً . ذلك لأنه قد تصدر من الشيخ صورة مذمومة فى الظاهر وهى محمودة فى الباطن ، فيجب أن يسلم إلى الشيخ وأن ينقاد إليه كل من له عقل سليم وطبع مستقيم .

وتسألنى لماذا لم أعهد فى الإصلاح إلى « شيخ التربية » على طريقة الصوفية ؟ فأجيب : وما أنسانيه إلاّ الشيطان ؛ فقد زين لى قراءة كتب الحيوان ، وحالها على عهد سليمان . ثم قرأت فى هذه الكتب أنّ « شمس المعالى » أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان قال فى القنفذ : « يتحير المعتبر فى آياته ، ويكل النظر فى

معجزاته ، وهو محارب حصنه من نفسه ومقاتل رماحه على ظهره ، وأنه إذا نام عنه الناس لم ينم » .

وكذلك جاء فى كتب الحيوان أنّ القنفذ كان من مستشارى سليمان الحكيم.

وقد تعلم أو لا تعلم يا سيدى الدكتور أنك قنفذ من الطبقة الأولى ، محارب حصنك من نفسك ، ومقاتل رماحك على ظهرك ، لا تنام ولو نام عنك الناس . وقد كان القنفذ مستشاراً لسليمان الحكيم كما قال « شمس المعالى » ، فلماذا لا يكون مستشاراً لصاحب المعالى .

ولتذكر يا سيدى الدكتور أنّ القنفذ كان أعلم الناس على عهد سليمان ، كما أنك أعلم الناس فى هذا الزمان .

وقد رأيتك ضائق الصدر بنفر ممن أحسنت إليهم فأساءوا إليك وتجنوا عليك . ثم قال رجل طويل اللسان إنهم « كلاب » يلهون مع اللاهين ، ويسهون مع الساهين ، ويميلون مع المبطلين . لكنك ياسيدى الدكتور غضبت « للكلاب » فلم أفهم سر غضبك . فلما رجعت إلى قنفذ سليمان وجدت أنّ هذا المستشار الأول غضب « للكلاب » أيضاً .

وفى هذا يقول الرواة أنّ سليمان عليه السلام أرسل إلى مستشاره القنفذ الفرس والبازى يدعوانه فلم يجبهما ، ثم أرسل إليه الكلب فأجابه وجاء به . فقال له سليمان لم لا تجيب الفرس والبازى ؟ قال لأنهما خائنان ؛ إذ الفرس يعدو بالعدو كما يعدو بصاحبه ، والبازى يطيع غير صاحبه . وأما الكلب فإنه ذو وفاء حتى لو طرده صاحبه عاد إليه ثانياً

ويزعم الزاعمون يا سيدى أنهم يستقلون ما عملنا . فأذكر أنّ نفراً من الصحابة جاء إلى دار النبى عليه الصلاة والسلام فسألوا أزواجه عن عبادته وقيامه وصيامه ، فذكرن لهم عبادته فاستقلوها . ثم قالوا : لسنا كالنبى فانه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر كله ، وقال الآخر: أمّا أنا فأقوم الليل كله .

وهكذا بلا تشبيه ولا تمثيل حالك وحال أمثالك فى هذه الأمة المجنونة التى تعلن أنها تثق بفلان وفلان فى الحال والاستقبال ، وأنها تغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر .

أمّا أولئك النفر من أصحابك فإنهم قوم لا تثق بهم الأمة ، لا فى الحال

ولا فى الاستقبال ، ولم تغفر لهم من ذنوبهم ما تقدم وما تأخر . فلا تعجب إن هم استقلوا جهودى وجهودك ، ثم قالوا كما قلنا إنّ العلم كالهواء والماء ، ولعلهم قالوا كالغذاء والكساء .

ولكنك تهزأ بهذا القول وتسخر منه ، وتؤكد أنهم إلى الآن لم يعملوا شيئاً . فاذكر ياسيدى الدكتور أنّ « شيخ التربية » الصوفى قد قال ذات مرة للمريدين : « إننى أخاف من كل فعل لأنه قد يكون سبباً لهلاكى . فاذا أردت أن أخطو خطوة رفعت رجلى فارتعدت فى الهواء ، ثم رددتها فارتعدت ، ثم أعدتها إلى ناحية الخطوة فارتعدت ، وهكذا لا أكمل الخطوة حتى يقول من يرانى ما به إلاّ الجنون . وما يزال الواحد منكم على الطريق حتى يصل إلى هذه المرتبة » .

* * *

ولو أنطقنا « تكافؤ الفرصة » بلسان الحال لقال « رضيت من الغنيمة بالإياب » . وهو مثل فى الخيبة يضرب عند القناعة بالسلامة لمن سعى إلى شىء فلم ينله غير أنه لم يعطب . وأؤكد لك يا سيدى الدكتور أنّ « تكافؤ الفرصة » لم يعطب وإن خاب إلى حين .

ودليل ذلك أنه محمود بكل لسان ، سواء فى ذلك الملاك والشيطان .

احمد نجيب الهلالى